

المحاضرة الخامسة المسؤولية عن السلوك الأخلاقي

يرتبط كلٌّ من الإلزام والمسؤولية والجزاء ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. بمعنى أن الإلزام يكون أولاً، فتتبعه المسؤولية، وتحمل الالتزام ثم يتبعهما الجزاء.

أولاً – الإلزام الخلقي:

تعريف الإلزام الخلقي:

الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب.

وفي باب الأخلاق يمكن تعريفه بأنه: تكليفٌ بتشريع خلقي.

أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتنال خلقٍ محمودٍ، أو اجتناب خلقٍ مذمومٍ.

والمقصود بالمكلف هو الشخص: البالغ العاقل.

أي أنه أمرٌ صادرٌ من الله أو من الرسول للبالغ العاقل، يحمله على خلقٍ محمودٍ كالصدق والعدل، أو يحمله على الابتعاد عن خلقٍ

مذمومٍ كالكذب والرياء.



مصادر الإلزام الخلقي:

إن مصدر الإلزام الخلقي - كغيره من الأحكام الشرعية - إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} {يوسف 40}، وقال جل في علاه: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} {الأعراف 54}. فالتشريع حق لله وحده.

ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا} {الحشر: 7}، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} {آل عمران 32}. فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابة وامتثال لأمر الله سبحانه..



العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع, غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس, وهي متفرعة عن الشرع, ومنضبطة به, وتتمثل في عوامل داخلية (وهي: الإيمان والعقل والفطرة والضمير الخلقي), وعوامل خارجية: (وهي المجتمع والسلطة الحاكمة).

وفيما يلي بيان موجز بكل واحدة منها:



-العوامل الداخلية للإلزام:

أولاً- الإيمان بالله وباليوم الآخر:

إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله وباليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى، وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} {الإنسان: 8-9}.



ثانياً- العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعة ومفيدة أقدم عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارة أو أليمة أحجم عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطي له يقوده إلى العكس. وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: [وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ] {الملك:10}.

يقول ابن القيم رحمه الله: " أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والإعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك ".



ثالثاً- الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفطر السوية، وتسعى للتخلي بها، على العكس من أضداد تلك الصفات كالخسّة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفطر السليمة تستقبحها وتتفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ] {الرُّوم:30}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه واقرؤوا إن شئتم: { فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله }.



رابعاً- الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، ينادينا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه. وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فتشعرنا بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد.

وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به. ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي. ولعل في قول النبي عليه الصلاة والسلام : ”الْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَأَطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ“ ما يشير إلى هذا الضمير الخفي أو الوازع الديني.



- العوامل الخارجية:

أولاً- المجتمع: أمر الله سبحانه المسلمين بمراقبة سلوك الأفراد في المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ} {المائدة:38}، وقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} {النور:2}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".

فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم.



ثانياً: السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف. وقد لخص الإمام الماوردي رحمه الله مهام ولي الأمر هذه في كتابه الأحكام السلطانية في أربع كلمات فقال: هي "حراسة الدين، وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وأما سياسة الدنيا فتكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.



- خصائص الإلزام الخلقي:

- يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:
 - أنه إلزام بقدر الاستطاعة, فلا تكليف إلا بما يطاق, قال تعالى: [لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا] {البقرة:286}.
 - أنه إلزام بما فيه يسر على الناس, ومن ثم فلا تكليف بما فيه حرج, قال تعالى: [وما جعل عليكم في الدين من حرج] {الحج : 78}.
 - إنه إلزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية, كما في إعفاء ذوي الأعذار عن الجهاد, قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ} {الفتح:17}, وكما في الترخص بالتلفظ بلسانه بالكفر مع بقاء قلبه مطمئناً بالإيمان, قال تعالى: [مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا] {النحل:106} .



ثانياً: المسؤولية الخُلقية:

ينتج عن الإلزام بالضرورة المسؤولية وإلا لم يكن إلزاماً بل اختيار.
وتعرف المسؤولية بأنها: "التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً".

أو : "تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قول أو عمل أو ترك".



- شروط المسؤولية:

يمكن إجمال شروط المسؤولية فيما يلي:

1- البلوغ: وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه, لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.

2- العقل: وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية, لأنه لا يعقل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

3- الاختيار: أي أن يكون العمل نابعاً من إرادته، حراً مختاراً فيه. وفي الحديث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ).



4- النية, إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته, ولم يكن ينوي النتيجة التي ترتبت عليه, فإن الله سبحانه يحاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهر عمله. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: 225). ويقول النبي صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات, وإنما لكل امرئ ما نوى).

5- العلم بالعمل المطلوب منه وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب. أو إمكانية العلم بذلك, بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال. قال الله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: 15).

6- كون العمل مما يطاق, أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه, وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يحاسبه الله عليه, وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: 286).



- خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية أو فردية، بمعنى أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره، وقد أكدت هذه الحقيقة آيات كثيرة من كتاب الله منها: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {الإسراء 15}.

غير أن هناك مسؤوليات أخرى كالمسؤولية التقصيرية (كمسؤولية الأب عن انحراف أبنائه أو الشخص عن من له ولاية عليه كما في الحديث: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"). والمسؤولية الاجتماعية أو التكافلية، وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول عليه الصلاة والسلام: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).



- أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

1. المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني الالتزام الذاتي من الإنسان نفسه على الإتيان بشيء أو الانتهاء عن فعل شيء.
2. المسؤولية الاجتماعية: وتعني الالتزام تجاه الآخرين من أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.
3. المسؤولية الدينية: وتعني الالتزام أمام الله تعالى.



ثالثاً – الجزاء الأخلاقي:

- تعريفه: هو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي؛ سواءً أكان ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءً أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجرائم، أم في الآخرة كنعيم الجنة.

- أنواعه: للجزاء ثلاثة أنواع هي: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

1- الشعور النفسي: ونعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية - وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه - وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سرَّته حسنَّته وساءتُه سيَّئته فذلك المؤمن).



2- العقوبات الشرعية:

ونعني به العقوبات التي أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله. والغاية من هذا الجزاء الشرعي معاقبة المجرم وردعه، وكذا ردع الآخرين ممن يمكن أن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الجرائم. وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع كحد الزنا، والسرقه، والقذف... .
وتعزيرات: أي عقوبات تأديبية يفرضها القاضي على جناية أو معصية لم يحدد الشرع فيها عقوبة.



3- الجزاء الإلهي: ونعني به الجزاء الذي يكون من الله في الدنيا أو الآخرة. ففي حالة الطاعة والامتثال له في الدنيا الرضا من الله والتوفيق والحفظ وتيسير الأمور والنصر والعزة، وهناك آيات كثيرة تؤكد هذا منها: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } {الطلاق 2- 3}. ومنها { إِنْ تَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ نُصَرِّكُمْ } {محمد 7}.

وفي الآخرة له الجنة والرضا، قال تعالى: { إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا.. } {الكهف 107}.

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها وعدم التوبة منها له في الدنيا ضنك العيش والمصائب والسخط من الله، قال تعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً } {طه 124}.

وفي الآخرة له نار جهنم والسخط من الله، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] {البينة: 6} .

